Journal of Islamic Civilization and Culture (JICC)

JOURNAL OF ISLAMIC CIVILIZATION AND CULTURE(JICC)

Volume 3, Issue 1 (Jan-June, 2020)
ISSN (Print):2707-689X
ISSN (Online) 2707-6903
Issue: http://ahbabtrust.org/ojs/index.php/jicc/issue/view/8
URL: http://ahbabtrust.org/ojs/index.php/jicc/article/view/108/109
Article DOI: https://doi.org/10.46896/jicc.v3i01.108

Title The plight of asylum in contemporary Levantine literature (An analytical study)

Author (s): Dr. Abdul Mujeeb Bassam and Dr. Shair Ali Shah

Received on: 29 June, 2019
Accepted on: 29 May, 2020
Published on: 25 June, 2020

Citation: Dr. Abdul Mujeeb Bassam and Dr. Shair Ali shah, "The plight of asylum in contemporary Levantine literature (An analytical study)," JICC: 3 no, 1 (2020): 396 to 412

Publisher: Al-Ahbab Turst Islamabad

Islamic Research Index
INTERNATIONAL Scientific Indexing
ALMANHAL
ASIAN Research Index
Crossref
Click here for more

محنة اللجوء في الأدب الشامي المعاصر

(دراسة تحليلية)

The plight of asylum in contemporary Levantine literature

(An analytical study)

الدكتورعبد المجيب بسّام[1]

الدكتورشيرعلي خان[2]

Abstract:

The forced ordeal of asylum in the current era has been written on a large number of our Arab brothers belonging to a number of Arab countries on which the merchants of war imposed bloody battles and developing tragedies: they were displaced and driven from their homes, so they were forced to migrate out of their country via land and sea, looking for asylum.

The safe haven in a number of eastern and western countries adjacent to or far from the borders of their countries. A large number of media outlets and human pens in many languages confronted to record this human ordeal, and Arabic literature had a lion's share in that. Also, it did not forget to portray this human ordeal with the poetic and prose lens of the writer, highlighting the current pain and future hopes in it, and by this it analyzes this tragic issue with the writer's eye, trying to present it with a set of possible solutions in his keen eyes and his sharp vision. This article attempts to shed light on this ordeal in the Levantine literature in general and the Syrian in particular, in a preface that deals with the issue of Palestinian asylum in poetry, and two chapters, one of which is devoted to talking about this ordeal in Shami poetry, and the other is devoted to talking about this ordeal in contemporary Levantine prose. Finally, a conclusion that includes the most important results of this study.

[1] أستاذ مساعد بقسم الدراسات الأدبية، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد- باكستان.

[2] أستاذ مساعد بقسم الترجمة والترجمة الفورية، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد- باكستان.

المقدمة

مما لا يختلف عليه اثنان أن للحرب ويلاتها، ولها مآسيها التي لا تعرف الحدود، ولا تميز بين الأحفاد والجدود، فنارها تأكل اليابس والأخضر، وتلتهم الأكبر والأصغر، وليس لها إلا لغة واحدة تقول بملئ فيها: اقتل، ودمّر، وشرّد، وبالتالي يُقتل العباد، وتُخرّب البلاد، ويشرّد العزل من الآباء والأولاد، والنساء والرجال والأطفال، وهكذا تبدأ أولى مشاهد قصة محنة اللاجئين الذين يهاجرون بلادهم التي كتبت عليها الحرب والدمار والخراب، مشردين في البلاد القريبة والبعيدة، باحثين عن مأوى يأويهم، وملجأ يلجؤون إليه، علهم يجدون فيه بعض حقوقهم الإنسانية من الراحة والأمان، واللقمة والحنان.

وممن كتبت عليهم هذه المحنة البشرية في العصر الراهن عدد كبير من إخواننا العرب المنتمين إلى عدد من البلاد العربية التي فرض تجار الحروب عليها المعارك الدامية، والمآسي النامية: حيث شردوا، وأخرجوا من ديارهم، فاضطروا إلى الهجرة خارج بلدهم عبر البر والبحر، باحثين عن اللجوء الآمن في عدد من البلاد الشرقية والغربية المتاخمة لحدود بلادهم أو القاصية عنها. ولقد تصدى لتسجيل هذه المحنة البشرية عدد كبير من الوسائل الإعلامية والأقلام البشرية باللغات العديدة، وكان للأدب العربي في ذلك نصيب الأسد، فقد تسابق إلى هذا الميدان يحاول أن يسجل مشاهده المتنوعة، وأحداثه المتعددة، ويحلل أسباب المحنة القاسية، والمأساة العاتية التي يعاني منها اللاجئون المشردون، كما أنه لم ينس أن يصور هذه المحنة البشرية بعدسة الأديب الشعرية والنثرية، ويبرز ما فيها من الآلام الراهنة، والآمال المستقبلية المنتظرة، وهو بهذا يحلل هذه القضية المأساوية بعين الأديب، محاولا أن يقدم لها مجموعة من الحلول الممكنة في نظره الثاقب، ورؤيته الحادة.

ولكل زمان شعراؤه وكتّابه، والأدب يتنوع بتنوع ما يحيط به من أحداث ومتغيرات، وما يقع على عاتق الأديب هو أن يحمل رسالة سامية تتمثل بعدم وقوفه موقف المراقب والمترقب، إنما الالتزام والتمسك بالقضايا من خلال

التصوير الدقيق للواقع ورصد المآسي والمِحن مرةً والصدح بكلمة الحق وتوعية الناس مرة أخرى.

والحق يُقال إن الأحداث التي طرأت بدايةً من عام 2001، فيما أُصطلح على تسميتها بالربيع العربي -والتي اندلعت شرارتها في تونس ثم عبرت إلى مصر ثم اليمن وليبيا وسوريا- حظيت بنصيب لا بأس به من الأشعار والروايات التي رصدت لنا بعضاً مما حدث سواء من تصوير للواقع المتردي الذي يدعو إلى حراك شعبي عام أو تصوير الجموع الجماهيرية وهي تثور طالبة الحرية ورافضة للطغيان، أو تصوير النتائج المدمرة والمآسي القاسية التي ألمّت بالشعوب نتيجة استخدام آلة القمع والقتل من قبل الحكومات المستبدة التي ترفض التغيير.

والمتأمل لهذا الأدب بشقّيه الشعري والنثري يجد أن السمة العامة له هي استرجاع الموروث القديم لأدب المقاومة والتحركات الثورية من حيث المدح والتعظيم للرمز الثوري أو القائد الصالح المُخلِص والمُخَلِّص، والتنديد وفضح الجرائم برموز الاستبداد والجور والظلم، ثم يأتي دور المآسي والكوارث والتي يكون فيها المدنيون هم الضحايا والخاسر الأكبر، ولعل أقسى كارثة وأشدها وطأة على الإنسان نتيجة الحروب هي قضية اللجوء وعذاباته، وهذا الأخير ما سنركز عليه فيما يأتي من صفحات.

التمهيد: إطلالة على قضية اللجوء الفلسطيني في الشعر العربي:

تبوأت فلسطين مكانة بارزة لدى معظم الشعراء الذين حملوا قضيتها وعبّروا عن أوجاعها التي هي أوجاعهم، فنقلوا الشعور من الصدور إلى السطور، ليقرأه القاصي والداني من أبناء العروبة، لعلّ الدم العربي يتحرك في صدورهم فيهبّوا لنصرتها وتحريرها، فقد استطاع الصهاينة خداع العرب، وليس هذا مستغربًا منهم، فاستعملوا أساليبهم الملتوية في خداع الرأي العام بأنَّهم دعاة سلام، وأنَّهم لا يريدون أكثر من وطن قومي لليهود، وعملوا على إقامة كيانهم المزعوم في فلسطين.

لم يكتفِ المستعمر الصهيوني باحتلال فلسطين فقط؛ بل سعى إلى تهجير

أهلها، شيوخها ونسائها وأطفالها، فضلًا عن إبادتهم كما حصل في مجزرة دير ياسين وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية ، فهجّر مئات الآلاف وشرّدهم وشتّت شملهم .

وقد استقبلت بعض الأقطار العربية هؤلاء المهجرين، وفتحت لهم أحضانها لترعاهم من ويلات التشرد والضياع، وآثر العرب أن يُشعروهم بأنَّهم ما زالوا في فلسطين وبين أهلهم، وذلك من خلال تقديم المساعدة لهم والتعامل معهم تعامل الأنصار مع المهاجرين في سابق الأيام.

وحزّ في نفوس كثير من الشعراء آثار هذا التشرد واللجوء والضياع فانبروا يسخّرون أقلامهم ويصفون لنا ما فعله هذا العدوّ الصهيوني بأمة العرب؛ من ذلك ما قدّمه لنا بدر الدين الحامد عن واقع هؤلاء المهجّرين المستضعفين بقوله:

كم فتاةٍ خرجت من خدرها ومشت في الليل حَيرى تَلطِمُ
ثم أعيت فارتمتْ عَبرى وقد دَمِيتْ ممّا مشته القَدَم
ولكمْ طفلٍ ذبيحٍ ولكم من شيوخٍ بالحراب اصطُلِموا
بيّتُوهم في العشيات ولا ملجأٌ يحمي ولا مُعتصَم
أين لا أين قطيعٌ سارحٌ في البراري والنشامى نُوّم؟!
بارك الله عليكم دُفنتْ نخوةُ العُرب فعيشوا واسلَمُوا[1]

فالفتيات خرجن من خدورهن لا يدرين أين يسرنَ في هذا الظلام، وهنّ يلطمن الخدود لأنّه ليس هناك من معين، وظللن يمشين من دون هدف حتى أوقفهن دم القدم، ومشاهد الذبح للأطفال وطعن الرجال. هذا كلّه جعل الشاعر يوجه خطابه لأبناء أمته العربية ويطالبها ببذل جهود أكبر لتحقيق العدالة لإخواننا الفلسطينيين، وفي هذا رمز لتحريك الحكومات العربية التي تكبح غضب أبناء الأمة العربية.

وأشار الشاعر بدر الدين إلى هذه الأعداد الهائلة من المهجّرين قسرًا عن أرضهم ولا جامع لهم سوى درب التشرّد الذي ساروا فيه، فقال :

تشرّد في الآفاق مليونُ لاجئٍ يجمعهم في كلّ منعطفٍ دربُ

ولُفِّف في الأكفان شِيْبٌ وفتيةٌ إلى الموت في الميدان أرواحُهم تصبو[2]

فهذا عدد كبير (مليون لاجئ) بالنسبة إلى عدد سكان فلسطين آنذاك، وقوله (لُفِّفَ في الأكفان شيب وفتية) إشارة إلى الدفن الجماعي الذي قام به الصهاينة الغزاة.

وقد عرض لنا الشاعر فؤاد الخطيب صورة لتائه لاجئ لا يدري أين يتجه، فصوّر وحشة الظلام الذي يسير فيه وصوّر لنا ما يسمعه هذا التائه وما يراه من أصوات، وممّا قاله الشاعر على لسان ذلك التائه:

كم ليلةٍ خضتُ منها لجّ غمرتها فبتُّ بالهــول بعد الهول أضطلعُ
تكـاثفت فحمة الظلماء مطبقةً حتى لتوشــكُ بالسكين تنقطع
والأرضُ في مأتمٍ منها وقد لبستْ ثـوبَ الحِداد وناح الذئبُ والضبُع
والبــومُ تنعق والأشباح هائمة تصطكّ في الجو شدًّا وهْي تصطرع
والريح تخفق حولي وهي طالبةٌ منهـا الفِرارَوفي أصواتها الفَزَع[3]

ولشدّة الأهوال التي يقاسيها هذا التائه بات يترنّح في مشيته ويتيه، ثم صوّر الشاعر استياء الأرض وخوف الذئب والضبع والغراب من أفعال المستعمر الصهيوني وجرائمه ووحشيّته، حتى الأشباح تهيم كاللاجئين وتركض خوفًا منهم، وحتى صوت خفقان الريح يوحي لذلك التائه بأنه خائف، فكم من لاجئ لم يجد مأوى له سوى افتراش الأرض، والتحاف السماء، يعاني قسوة المناخ والحرمان، وهذا ما عبّر عنه الشاعر سليمان العيسى بقوله:

للريح لسعٌ كالسيــا ط وللدجى زأرٌ مخيفُ!
وخلا الطريق فليس من همسٍ بخاطـره يطوف
يــا للظلام! كأنما للجـن في فمه عزيف
همَد الطريق سوى زئيـ ـر العاصفات على الطريق
والشـارع الوهاج مثـ ـل القبرفي صمت عميق
أين السجينُ على الهنا ءة والكؤوس من الطليق؟
وتململ الجسد الطريـ ـح على خيال من سمـاح

وتحرّكت كفَّان را عشـتان في شبه انفتاح
ولمحتُهُ، الموتُ والجو ع المـروع في كفـاح[4]

ولم يقف خير الدين الزركلي عند التعبير عن حالة التخاذل الوطني التي وصلنا إليها تجاه القضية الفلسطينية، وما انتابه من حزن على وطنه الغالي، بل إنه تعدّى ذلك إلى تصوير أحوال اللاجئين الفلسطينيين الذين أبعدوا عن ديارهم، وأراضيهم مكرَهين، عندما حلت الكارثة عام 1948م واغتَصبت العصابات الصهيونية فلسطين، وشَرّدت أبناءها وأقامت الدولة المزعومة.

ولقد نزح كثير من الفلسطينيين عن أراضيهم، وهذه كارثة أخرى عبّر عنها الزركلي في الأبيات الآتية:

مدّتْ بساطَ العطف من رفقها واللاجئ المحروم مُستعطِفُ
تُطْعمه الـزَّقُّوم: كُلْ هانئًا أمامـك السّمُّ أما تعرفُ؟
موطنك الدنيا.. وإن يبغـه فبيته قـاعٌ بها صفصفُ
مشـرَّد كـأنَّه أكـرةٌ يحبسـها اللاعبُ أو يقذفُ[5]

شبّه خير الدين الزركلي اللاجئ المشرّد بالكرة التي يلعب بها الصهيوني كيف يشاء من دون أن يحاسبه أحد، كما شبّه طعامه بالزقوم والسمّ.

وردّ زكي قنصل ضياع فلسطين وتشرد الفلسطينيين إلى تهاون الحكام العرب وتفرّقهم:

لهفي على القدس انطوت أعلامُهُ وكبت بأشبال النضال خيولُ
يمشي الأصيل ابن الأصيل مطأ طئًا فيه ويشمخُ واغلٌ مرذولُ
مليونُ عانٍ في العراء تشرّدوا لم يختلج لهوانهم مسؤولُ [6]

وقد صوّر حليم دموس أدمع هؤلاء المتشرّدين ولوعة مهجهم جرّاء ذلك الخطب الجلل فقال:

آهِ كمْ من أدمعٍ منحدرهْ من صغارٍوشيوخٍ ونساءْ
ولكمْ من مُهَجٍ منفطرهْ لخطوبٍ عندها عزّ العزاءْ
فإذا بالرحمة المستترهْ تمسح اليومَ دموعَ البؤساءْ[7]

كأنّ دموع هؤلاء الصغار والشيوخ والنساء سيل منحدر ومهجهم متصدّعة منفطرة إثر ذلك الحادث الجلل.

لقد كانت مثلُ هذه الأشعار المؤنسَ والمواسي لهؤلاء اللاجئين، فجاءت صادقة نابعة من روح مشاركة أصحابها هؤلاء اللاجئين همومهم ومصائبهم، كما سعى أصحاب هذه الأشعار إلى رفع صوت النجدة والاستغاثة لعله يهيب بأبناء أمتهم فيهبّوا إلى إدراك ما بقي من فلسطين واسترجاع ما ضاع.

المبحث الأول: دور الشعر في تصوير محنة اللجوء.

عندما نسمع بكلمة (اللجوء) فيتبادر إلى أذهاننا فوراً الشعب السوري الذي عانى ما عاناه من التشرد، والنزوح الجماعي، واللجوء إلى بلاد مجاورة وبعيدة بسبب آلة القتل والتدمير المستمرة منذ ما يربو على ثماني سنوات، ولكثرة الأدباء والشعراء الذين صوروا حال ما يقارب من 9 ملايين لاجئ أصبح هناك أدب خاص بهذه الكارثة أُطلق عليه (أدب اللجوء)، ومما نلحظه عند شعراء هذا الأدب أنهم هم أنفسهم لاجئون، لذلك جاء حديثهم عن هذه المعاناة مغلفاً بطابع الصدق الشعوري والإحساس العالي بحجم الكارثة.

ودائما ما كان يتردد إلى أذهاننا قول الشاعر هاشم الرفاعي[8] الذي تطرق إلى أسباب هذه الكارثة، وطريقة تعاطي المجتمع الدولي، والمنظمات العالمية التي تتشدق بحقوق الإنسان والحريات، وفي الحقيقة ما قالت إلا كذباً، وكل القرارات التي تصدر عنها ما هي إلا لتخدير الشعوب المنكوبة، حيث قال:

سيحدثونك يا بُنيَّ عن السلام
إياك أن تصغي إلى هذا الكلام
كالطفل يخدع بالمنى حتى ينام
لا سِلمَ أو يجلو عن الوجه الرغام
صدقتهم يوما فآوتني الخيام
وغدا طعامي من نوال المحسنين
يُلقى إلي .. إلى الجياع اللاجئين

ولعلنا نستطيع أن نتحدث في هذه الكارثة ضمن جزئيتين، الأولى منها هي قضية اللجوء الداخلي ضمن البلد، وهذا كما يراه كثيرون أقسى من غيره لأنه يحزّ في الإنسان أنه قريب من بيته ولا يطوله أو حتى لا يستطيع زيارته، وخير من يمثّل هذا الاتجاه الشاعر نادر شاليش[9] الذي ينتمي إلى قرية في أقصى الشمال من محافظة حماة، ولجأ إلى مخيمات على الحدود السورية التركية في منطقة (أطمة)، حيث بدأ رحلة العذاب والمعاناة، وجسّد هذه المعاناة في قوله:

أرسلْتُ روحِي إلى دارِي تطوفُ بها لمـــا خُطانَا إليها ما لهَا سُبُلُ
أن تـألَ الدارَ إنْ كانَتْ تَذَكُرُنَا أمْ أنّها نَسـيَتْ إذْ أهلُهَا رحلُوا
أن تسـألَ السّـقفَ هل مازالَ مُنتصِباً فوقَ الجدارِ شُموخاً رُغمَ مافعلُوا
أم أنها ركعَـتْ للأرضِ سـاجدةً تشـكو إلى الله في حُزْنٍ وتبتِهلُ
أنْ تسألَ النّخلَ هل أكمامُه نَضُجَتْ أن تسـألَ التينَ والزيتون متصـلُ
هيهـات يا دار أن تصفو الحياةُ بنا ويرجِعُ الجمعُ بعدَ النّأي مكتمِلُ
لـنّ روحِي ستبقى فيها ساكنةً ما لي بأطمةَ لا شـاةٌ ولا جملُ
إن مـتّ يادار أو طالَ الفِراقُ بنا فالصبرُ يادار لايُضعِـف لنا أملُ
لابـدّ لليلِ من صبحٍ يبدّدُه ويسـطعُ النورُ والظلماءُ ترتحلُ[10]

في هذه الأبيات خليط من مشاعر الحزن والفقد والحرمان والصبر والأمل، فعندما لا يستطيع الإنسان أن يلقى من يحب فإنه يستحضره في ذهنه، وهذا حال شاعرنا، فعندما عزّ اللقاء، واستحالت العودة إلى مرابع الصبا ومسقط الرأس أرسلَ روحه التي تستطيع أن تَعبُر الحواجز التي صنعها البشر لتصل إلى مكان عجزت خطواته عن الوصول إليه، لتطوف الروح بتلك الدار وكأنها أصبحت قِبلته، ثم يوصي تلك الروح أن تسأل الديار في محاولة لخلق حوار شعري بين ما هو حي وما هو جامد ليضفي على ما جاء به نوع من التشخيص الذي يزيد آلام النفس من شدة البعد، وليوصل رسالة للقارئ مفادها: كم هو قاسٍ أن يترك الإنسان بيته ولا يعرف ماذا حلّ بهذا البيت، ليطرح بعدها عدة تساؤلات تزيد من عمق المشهد، حيث يغوص بالتفاصيل، فمرةً يسأل عن

الذكرى إذا كانت الدار تتذكر صاحبها، ويدخل بعدها بالتفاصيل ليسأل عن حال الدار هل مازالت قائمة أم أنها تدمرت نتيجة القصف؟ ثم يسأل عن الأشجار التي تحويها هذه الدار، ليؤكد بعد ذلك على أن هذه الحياة ليست بحياة، وهو لاجئ بعيد عن بيته، ولكن ثمة مندوحة من الأمل تتأتّى من الصبر على المصائب، فلا بد في النهاية من بزوغ فجر جديد يمحو ما قبله من ظلام وظلم.

أما الجزئية الثانية فهي قضية اللجوء الخارجي، وكيف حال الإنسان الذي يغادر وطنه، وها هو الشاعر ياسر الأطرش[11] يبين بداية دوافع اللجوء التي تضطر الإنسان لترك كل شيء خلفه، وهذا كله كان بسبب صرخة في وجه الطغيان وأدواته، فيقول في قصيدة بعنوان (أنا إنسان):

أنا إنسانْ

عبرتُ الْكان كي أفضي إلى ما كانْ..

ويا تاريخ فتشني.. أنا رجل قتلتُ جميع أوثاني

أنا رجلٌ بلا أوثان .

أنا الساحاتُ في قلبي

وفي قلبي الذي فيها مغنيها وثائرها، ممشطُ شعر أرصفة تداريها

حناجرُ أمةٍ ثقبتْ دجى التابوت و انسّلتْ مع الفجر

لتُطلعَ صوتَ من غابوا وتغرق ضجة الطغيان[12].

وعندما يفتتح الشاعر كلامه بعبارة (أنا إنسان) فهذه إشارة واضحة إلى أن قضية اللجوء هي قضية إنسانية بالدرجة الأولى، وهذه صرخة في وجه جميع الدول والمنظمات التي تتخذ من اللاجئين قضية سياسية أو مجالاً لتصفية الحسابات، فيذكر الشاعر أنه في بداية الأمر كانت القضية تتعلق بطلب الشعب لحريته، فلا عودة بعد اليوم لتقديس الطغاة، ولا مجال بعد الآن للعيش تحت قيد الاستبداد، ولكن المشكلة عندما يقرر الطاغية تدمير الشعب والوطن من أجل بقائه، فلا يجد الإنسان بدّاً من الهروب ولكن تبقى علائق الأماكن

والساحات في نفس الإنسان مهما ابتعد عن وطنه.

ومن ضمن ما أنتجته الحرب السورية قصائد مؤثرة صورت الواقع أجود تصوير، بل تعدت قضية تصوير معاناة اللاجئين إلى محاولة جعل مشكلة اللاجئين قضية رأي عام، وحثّ المجتمع الدولي –الميّت أصلاً- على اتخاذ قرارات صارمة من شأنها إنهاء هذه المعاناة، وهذا ما نجده جليّاً في قصيدة للشاعر الذي سبق بعنوان "طلب لجوء" إلى القلوب، يقول:

لا تتركونا وحدنا لليل والبحار

لا تطردوا أطفالنا من رحمة النهار

لا تعرضوا أشلاءنا في معرض الأسى

وحاولوا عسى.... لا تتركونا وحدنا كغيمة نذوب

ولتعلموا بأنني أريد ظل منزلٍ في حارة قديمة في دولة القلوب[13].

وهنا ملّ الشاعر من استجداء الحكومات والمنظمات الدولية لمساعدة الناس المنكوبة في محنة لجوئها، وعندما أيقن أنه لا أحد يسمع آهات المفجوعين وأنات المهاجرين ومطالبتهم بتقديم وطن آمن بعد رحلة العذاب والموت، فطلب لجوءا إلى الإنسانية المتمثلة بتلك القلوب الدافئة التي تتضامن مع حقوق الشعوب المنكوبة –وهذا أضعف الإيمان- شارحاً بذلك مكابدات الرحلة وقسوتها عندما تبدأ بركوب البحر وأخطاره، هرباً من الظلم والظلام، ويدعو إلى عدم استغلال هذه المحنة الإنسانية في سوق التجارة وذلك بجعل صور الأشلاء الغارقة في البحار، والجثث المعلقة على أسلاك الحدود في معارض وبرامج لا تفيد أصحاب هذه الكارثة وإنما تزيد من ألمهم، فالمطلوب هو أن تكون معي بقلبك فقط.

المبحث الثاني: دور النثر في تصوير محنة اللجوء:

من المعروف أنّ الاستجابة الأدبية عامة، والنثرية خاصة لمتغييرات طارئة بحجم تلك التي حدثت في الوطن العربي، تتطلبُ وقتاً زمنياً قد يطول حتى يستوعب المجريات والأحداث وتصوير المعاناة وسكبها في قوالب نثرية تتطلّب بطبيعة الحال نفساً أدبياً طويلاً كالقصة والرواية.

ومع ذلك فتحَ هولُ معاناة الشعوب العربية البابَ واسعاً أمام مغامرات الكتابة القصصية والروائية، لا سيما معاناة النزوح واللجوء التي نحن بصدد الحديث عنها.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الكاتبة السورية ابتسام شاكوش[14] كانت من أكثر الأدباء عمقاً في تصوير معاناة النزوح في المخيمات، وهذا ما نجده جلياً في مجموعتها القصصية (بين الخيام) التي كتبتها في خيمة بعيدة عن مسقط رأسها، لذلك أنتجت تجربة صادقة في الكتابة، ففي هذه المجموعة صوّرت تلك الرحلة عبر الحدود ومعاناة الناس، لا سيما الأطفال عند الركض والمشي السريع مع الخوف من الوقوع بأيدي الحرس، ثم تتناول مرحلة ما بعد الوصول إلى المنفى حيث لا جدران ولا سقوف تقيهم حرارة الصيف أو برد الشتاء، فهي خيمة وخيمة فقط، بالإضافة إلى ما يتعرض له اللاجئ من ضغوط نفسية واجتماعية تتحول إلى كابوس يجثم على صدره فلا يفارقه أبداً، ونقتبس من قصة بين الخيام ما يصور لنا معاناة طفل يمثّل الأطفال الهاربين من جحيم القتل:

"ما كانت يداه محروقتين، لا، ولا كان وجهه أسود، ولا كان جسده ملطخا بالكدمات الزرق، حين خرج حمزة من داره تاركا باسم ورباب يلعبان بين صفحات كتاب القراءة، الذي تركه في بيته وخرج مع أمّه نازحا مشردا لا يعرف، ولا تعرف، إلى أين، يدفعه الرعب للتمسك بذيل ثوبها في دروب وعرة، هاربين من براميل الموت المتساقطة على المدن والقرى"[15]

أما الكاتب فخر الدين فياض[16] فقد تناول في روايته (رمش إيل) محنة اللجوء من زاوية أخرى حيث عقد مقارنة بين رحلة اللجوء الفلسطينية وتجربة اللجوء السورية بكل تفاصيلها، حيث يكشف رحلة النزوح بين جبال الجليل إلى لبنان فاللاذقية، وكيف يدفع القهر والطغيان أبناء الأرض الفرار خارج سورية خشية الاعتقال أو سَوقهم إلى الموت، وتمتد الرواية من زمن ما بعد النكبة إلى العام الثالث من الثورة السورية، يقول:

"ولدت من رحم امرأة ميتة.. بعد أن تشبثت بدفئه أكثر ما ينبغي، خوفاً من

جحيم أصوات متوحشة، ومشاعر غريبة لامرأة تلد على ظهر حيوان عنيد، يخترق جبالاً وعرة هرباً من الموت"[17]

وللكاتب محمد فتحي المقداد[18] رواية بعنوان (الطريق إلى الزعتري)[19]، والتي تعد معرضاً سردياً لمواضيع تدور حول مأساة اللجوء، حيث انطلق الكاتب من الهتافات والصيحات والمطالبات بإطلاق الحريات، وإنهاء حالة الطوارئ في البلاد وإلغاء الأحكام العرفية، إلى ضرورة الإفراج عن المسجونين والمعتقلين والمغيبين قسراً في السجون والكشف عن مصيرهم، ثم تناول الظروف التي فُرضت على السوريين وانتهت بهم على أبواب المخيمات الحدودية، وخص بالذكر مخيم الزعتري في الأردن.

وما يميز هذه الرواية أنها كانت لسان حال البسطاء والهاربين من جحيم الحرب إلى جحيم اللجوء، ورصدت كثيراً من آراء الناس وقصصهم في رحلة اللجوء هذه، فيقول:

"مزيد من تداعي أفكاري، و أنا أقف مشدوها أمام البو ابة الكبيرة المحاطة بالأسلاك و الحراس، عيناي مركزتان على لوحة كبيرة مكتوب عليها "أهلا بكم في مخيم الزعتري، كان هناك، خلف الحدود، يرا اقب قو افل أهله و جيرانه وهي تغادروطنها في طريقها إلى الزعتري، لتبدأ حكايا الزعتري تصل إلى مسامعه وهو الأديب الذي لطالما عبرعن مكنوناته بكلمات يخطها في السطور، وما بين السطور"[20].

وفي كتابات أخرى لهذا الكاتب حملت عنوان (شاهد على العتمة) يحضر مخيم الزعتري بقوة، حيث أرّخ هذا الشاهد الحقيقي لمشاهد وحوادث حقيقية حدثت بالفعل في مخيم الزعتري ليكون بذلك شاهد صدق، فعندما يروي عن الحريق في مخيم الزعتري ويقارنه بالحرائق التي كانت تزهق الأرواح في وطنه الأم سورية، وكيف هرب طلباً للأمان ليواجهه حريق في مخيمه، حيث يقول: **"رأى فيما يرى النائم خيراً أن حرائق وطن قد ألقت بظلالها على الحياة التي هجرته إلى مخيمات اللجوء خارج حدود الوطن ، طلباً للأمان ..... طالبين**

النجاة بأرواحهم التي حرقتها نار التدفئة التي يعاقرونها ليشعروا بدفء أجسادهم المنهكة ، والتي احترقت ثانية داخل الخيمة ، المأوى التي أصبحت الحلم"

كل هذا حدث والعالم يحتفل برأس السنة ويشرب نخب الأمان والسلام الفارغ الذي يسوّقون له بينما الرياح المغبرة اقتلعت الخيام البائسة والأمطار قد أغرقت أرض المخيم لينام الأطفال على الطين وقد اصطكت أسنانهم برداً.

أما الحالة النفسية للاجئ فلم تكن أحسن حالاً كحالته المادية والمعاشية، حيث يصور لنا الكاتب حالة الخوف التي تنتاب الأطفال عند عبور الطائرة فوق المخيم ليظهر هلع الطفل إلا أنه برر له بأن لا أحد قصف مكاناً للأمم المتحدة.

(رأى فيما يرى النائم خيراً أن الخيم في مخيم الزعتري تطير في السماء ن بفعل الرياح الشديدة، المصحوبة بالأمطار والثلوج بينما سكانها يغرقون في طين ومستنقعات المخيم).

ويتطرق الكاتب إلى المعاناة الثانية التي تفرضها مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة على اللاجئين في كثير من الأحداث ، ولعل أبرزها هو تحويل اللاجئ إلى رقم لا قيمة له، بشكل لا يختلف عما كان يعانيه في معتقلات وطنه ومن ثم طوابير المعونة والازدحام الشديد والمكوث لساعات طويلة في ظروف الطبيعة الصحراوية القاسية للمخيم ، بالإضافة للحالات المرضية التي تحتاج إلى مشافي متخصصة وعناية فائقة، يقول:

"رأى فيما يرى النائم خيراً أن طفلاً يلعب بجانب الخيمة في مخيم الزعتري فوجئ بمرور طائرة عابرة فوق المخيم . فقال لوالده : يا بابا هل تستطيع هذه الطائرة قصفنا ؟

- لا يا أبي

- ولماذا ؟!

- لا يستطيع أحد في العالم أن يعتدي علينا أبداً ، خوفاً من حرفين هما UN باللون الأزرق مطبوعين على سطح الخيمة، استغرب الصبي كلام أبيه لأنه لم

يفهم الكثير من المعنى ، وتابع اللعب دون اكتراث".

وقد برع الكاتب في تصوير ملامح المخيم بشكل كبير ليؤرخ لمرحلة مهمة جداً في رحلة اللجوء قبل أن يغادر المخيم مثل غيره ليبدأ رحلة جديدة في اللجوء بعيداً عن وطنه، ويبدأ يؤرخ ما قد يراه ويعانيه ويصور أحداثاً من الوطن الذي لجأ إليه.

"رأى فيما يرى النائم خيراً أن نسمات الهواء اللذيذة على القلب خارج أسواء مخيم الزعتري تختلف مئة وثمانين درجة عن النسمات داخل المخيم "

وهنا يعطي الإشارة الواضحة بالدخول إلى عالم جديد خارج أسوار المخيم بعيداً عن كل ما لاقاه وقد حمّل في شهاداته العديدة العالم كله وبالأخص المفوضية والدول العربية مأساة السوريين في وطنهم وفي المخيمات.

أما ما يزيد الألم ألماً والمأساة فجيعة فهو الموت في بلد اللجوء بعيداً عن الديار، وهنا يأتي الكاتب عساف العساف[21] في قصة "**قبر واحد هو العالم**" يتحدث عن صديق له دَفن قريبه في الأردن وآخر دَفنه في لبنان، ويخطر بباله حينها مقبرة بلده الصغيرة في منطقة الموحسن من قضاء مدينة دير الزور، ليتحول العالم بأكمله إلى قبر واحد، حيف يقول:

"لم يتأخر سؤالي بعد مواساة صديقي بوفاة والده اللاجئ في الأردن، أين دفنتموه؟

في مقبرةٍ للاجئين السوريين قرب الرّمثا، أجاب صديقي. تبرَّع بأرضها أحد المواطنين وقال: هذه مقبرة للسوريين. امتلأت، فتبرَّع آخرٌ وقال: هذه مقبرةٌ أخرى....

وما زال السؤال قائماً، أين يُدفَن السوريون في لبنان يا حج أبو البراء؟

في كلِّ مكان، كلٌّ في منطقته، يَرُدّ.

أَستفصِلُ منه أكثر: لاجئو الخيام في البقاع أين يدفنون؟

لقد تَبَرع مواطنٌ لبناني هناك بقطعة أرض، وصارت مقبرةً لهم"[22].

الخاتمة:

رأينا كيف أن الأدب هو المعبّر في كثير من الأحيان عن خلجات النفس التي تأتي من حالات القهر والحرمان والهجرة والاعتقال أثناء الحروب التي لامنطق لها ولا دين، والمأساة الناتجة عن اللجوء كبيرة بحجم الانسلاخ عن الوطن، وهذه المعاناة ترجمها كثير من الأدباء والشعراء إلى مادة خام لكثير من الدراسات الأدبية والفكرية، وللعلم فإن تصوير مثل هذه المحنة الكبيرة حاضر من قبل الأحداث والمتغيرات الجديدة التي طرأت على الوطن العربي وهو حاضر في الثقافات والمجتمعات كافة، وقد تنوعت الموضوعات التصويرية بين البحث عن الأسباب وكشفها وتصوير الواقع ومعالجته، بالإضافة إلى كشف الحياة النفسية التي عاشها ويعيشها اللاجئ من الشعور الدائم بالنفي والاغتراب والحنين.

وبعد الدراسة والجولة السريعة عبر الصفحات السابقة في تجربة الشعراء والكُتّاب نستطيع أن نسطر النتائج التالية:

1. إن كان الإعلام المرئي والسمعي حاول أن يسجل صورة مأساة اللاجئين الواقعية بعدسات كاميراتهم، ووسائل إعلامهم العديدة، فإن الأدب الشعري والنثري لم يكن أقل تصويرا لهذه المأساة الإنسانية التي يعاني منها الكثير من إخواننا المنتمين إلى عدد من البلاد العربية، وذلك جراء الحروب الدامية التي كتبها تجار الحرب عليها.
2. انقسم الشعراء والكتاب الذين أنتجوا ما لديهم بهذا الخصوص إلى فريقين: فريق صور هذه المحنة عن بُعد بعدسة الأدب الشعرية والنثرية، فكان لهم تصويرهم الخاص الذي اتسم بالتعميم، وفريق صور هذه المحنة عن كثب، وذلك لأنه بنفسه كان من اللاجئين الذين قاسوا مرارة تجربة اللجوء، فكان لهم تصويرهم الذي يختلف كثيرا عن تصوير الفريق السابق إضافة إلى أنه اتسم بالدقة في الأحكام، ونقل الصورة ومن ثم تسجيلها وتخليدها عبر صفحات التاريخ الأدبية.
3. اتسم معجم أدب اللجوء الشعري والنثري بعدد من المصطلحات والكلمات

التي تنتمي إلى عالم المأساة المليء بالأحزان والآلام والجروح وحكايات الضياع في العالم الإنساني المعاصر.

4. لم تستطع الحروب ومآسيها أن تقف في وجه الإنتاج الشعري والنثري الذي شارك أصحابه عن طريقه إخوانهم في محنة اللجوء القسرية المكتوبة على اللاجئين من العتاة والظلمة الذين لا يرقبون في الناس إلاً ولا ذمة.

الهوامش والحواشي:

1. Badar uddin al Hamid, Diwan shaa'ir al Asi Badar Uddin, wazarat al saqafa wa al irshad al qomi, Damishq, 1975, v1, pp. 354
2. Ibid, pp. 329
3. Diwan fowad al Khatib, Darul ma'arif, Egypt, 1959, v1, pp. 374
4. Suliman al Eisi, Aasir fi al salasil, matba'a al ma'arif, Halab, v1, pp. 74-79
5. Diwan Khair uddin al zarkali, Moassasat al risala, Beirut, 1980, pp. 355
6. Diwan zaki Qansal, wazart al saqafa, Damishq, 1986, pp. 85
7. Haleem Damos, Diwan al salis wa al sani, matboa' al Irfan, 1926,v1,pp. 117
8. Shaa'ir Misri, al ma'had al zarqaee, 1947
9. Nadir bin Yasir al Shalish, Hamadat al Shimalia, 1940,
10. Nadir bin Yasir al Shalish, Diwan atmiat, qiad al tabaa'a
11. Ibid
12. Yasir al Atrash, Diwan ana insan, darul yamaan, Halab, 2013, pp. 10
13. Yasir al Atrash, Diwan fi Hija al bilad, Istanbul, 2018, pp. 35
14. Ibtisam Shakosh, kitaba Sorya min al Huffa, rabita al kitab al Arab al Ahrar, Kuwiat, 1999
15. Ibtisam Shakosh, Bain al Khiyam, dar noon4, ghazi Itab, 2016, pp.33
16. Mawalid 1965, kuliat al iqtisad, Jamia Damishq,
17. Kakhar Uddin Fayaz, Riway Ramish Eil, dar noon lil nashar, Ras al Khima, pp. 12
18. Basari al Sham, min mawalid al Sorya 1964, al Turas al Shiea'I, 2011
19. Mukhim al Zara'atri, Mukhim lil bahisin al Sori, al Turas al Shiea'I, 2011
20. Al Miqdad, Muhammad Fatih, Dar Ammar Linnashar wal tozee, Umman, 2018. pp, 6.
21. Tayyib Sori, min mawalid madina al mow hasin al taba'a li muhafizat, dir al zor, 2015
22. www.alwan.fm